تأملات

في مؤتمر القطّان التربوي الثالث

عبد الحليم نمر اسليمي

في 1/ 12/ 2009، وصلتني دعوة للحضور والمشاركة في مؤتمر القطان التربوي الثالث: تجارب تطبيقية حول ممارسات التعليم ومعارفه. سعدت كثيراً بهذه الدعوة، وسعدت أكثر عندما قرأت برنامج المؤتمر والمقاربات الفكرية والتجارب العملية التي ستعرض فيه، والتي هي نتاج المعلمين أنفسهم، وهذا بدوره دفعني كثيراً نحو القبول بالدعوة على الرغم من أن المؤتمر سيعقد في أيام العطل التي هي من حق أبنائنا علينا وعلى أنفسنا، وكذلك لأنني أعرف ماذا يعني «القطان»؛ فهو فضاء معرفي معمق للجذور الفكرية للمعلمين وللعملية التربوية، وهو منارة للعلم والمعلمين، من خلاله نستمد الأمل والثقة بمستقبل أفضل.

انطلقت صباح يوم الجمعة، وكان يوماً ممطراً، أزاح عني هموم السفر ومشاقه. عند وصولي إلى قاعة المؤتمر، كانت فرحتي عظيمة عندما شاهدت أعداد المعلمين ضعف ما كانت عليه في مؤتمر القطان الثاني، ولكن هذه الفرحة تخللتها غصّة، لأنني لم أستطع حضور افتتاح المؤتمر، فضاع علي ما كنت أتمنى سماعه من الأخوين وسيم الكردي ومالك الريماوي، لما لهما من توجهات تربوية مميزة، وهما اللذان يرددان دائماً شعاراً «إذا أردت أن تكون معلماً ناجحاً فيجب أن لا تكون معلماً داخل الصف»، وهو بمثابة دعوة للابتعاد عن المعلم التقليدي (المعلم البنكي)، والاستعاضة عنه بالمعلم الحواري المبدع المثقف. ومما يشدني أكثر في توجهاتهما هو طريقتهما في فلسفة الأمور، وخاصة التربوية، بما يتناسب مع التعليم ما بعد الحداثة، وجل هدفهما هو صياغة إنسان فلسطيني متعلم ومثقف، مطلقين مناحات للحرية والتجريب والبحث للتقدم والتطوير في جميع الاتجاهات والمجالات.

جلسنا على المقاعد، وبدأت أنظر إلى المنصة بشغف، وتأملت في الأشخاص الموجودين عليها، فأول ما لفت انتباهي الثقة العالية التي يتمتع بها كل من المعلميْن محمد الخواجا ويوسف الخواجا، والأجمل من ذلك طريقة سردهما لتجربتهما والتسلسل في الكلام، بحيث لا تفارق البسمة شفتيهما، فتولد لدي إحساس بأن كلامهما يخرج من أعماق الحقيقة، وهما على قناعه تامة بما يقولانه ويفعلانه.

بدأا بعرض تجربتهما (المدية مشهد ثقافي جغرافي) بطريقة حوارية تأملية استنتاجية بين أطراف العملية التعليمية الثلاثة (المعلم، والطالب، والمجتمع المحلي) للوصول للمعرفة، بحيث يتم استنهاض كوامن النفس البشرية عند هذا المثلث، للوصول إلى المعرفة، ويكون لكل منهما بصمة فيما يقولانه ويفعلانه منتجين للمعرفة لا مستهلكين لها.

وما أعجبني كثيراً أن هذه التجربة فريدة من نوعها على الجميع، بحيث توثق ذاكرة المكان والزمان في هذه القرية النائية، من خلال استحضار تجارب الماضي في مشهد ثقافي يحاكي التعليم التكاملي.

لقد غاصت هذه التجربة في جوانب كثيرة من المعرفة قديماً وحديثاً، مطلقة العنان للطلبة للإبداع في مجالات كثيرة؛ مثل الحكايات الشعبية، والطب الشعبي، والألعاب الشعبية، والفلكلور والتراث الشعبي، وجغرافيه القرية، كل ذلك ضمن مشهد ثقافي جغرافي. وقد اعجني كثيراً حركه الطلاب في جميع المجالات والاتجاهات بلا خوف ولا تردد، للوصول إلى المعرفة المتكاملة، معتمدين في ذلك على الحوار، والتساؤل المنطقي، والمناقشة، وتوظيفها في أنشطة علميه مختلفة من رسم، وتحليل وصفي وكمي لجغرافية القرية المساحية والسكانية، والمساهمة في إثراء المنهاج المدرسي. فكل الاحترام للمعلمين الخواجا على هذا النمط من التجارب والمقاربات الفكرية.

ومن ثم أطلت علينا المعلمة ريما طه في تجربتها (مغامرة في البحث عن حكمة). شدني كثيراً أسلوبها المقنع في الكلام وتجربتها غير التقليدية التي تعتمد على الاستمتاع بالقصة والتفاعل معها والتعمق في أبعادها، وملامسة العلاقات بين الناس وطرائق التعامل مع بعضهم البعض، ومع أدوات الزراعة قديماً، مسلطة الأضواء على حياة الإنسان الريفي وبساطتها.

ركزت في جانب آخر على آلية التعامل مع المواقف العصيبة وطريقة التفكير، والعمل تحت الضغوط المختلفة. والجميل في كل هذا أن المحور الرئيسي في التجربة هم الطلبة أنفسهم، حيث تم توظيف الدراما في تفعيل هذه التجارب وتنفيذها، وذلك باستخدام الرسم، والكتابة، والتعبير الشفوي.

واستطاعت هذه التجربة أن تدفع الطلاب باتجاهات تربوية مختلفة، متمثلة بازدياد الثقة بالنفس، والسمو، والارتقاء، والمقدرة على التعبير والكتابة، والعمل أثناء المواقف الخطرة، بحيث كان عندهم جواب لكل سؤال مقلق، من خلال استنهاض الكامن من قدراتهم وملكاتهم الحسية والنفسية والعقلية والاجتماعية، لكي يصبحوا أكثر فاعلية ومسؤولية في المستقبل للنهوض والارتقاء بمدرستهم.

بعد استراحة قصيرة ومداخلات هادفة وبناءة من الحضور، أطلت علينا المعلمة كنانة الدجاني بتجربتها (الهوية والألم)، التي تتمحور حول عمل الجهاز العصبي عبر استخدام الأفلام العلمية في التعليم والتعلم.

وبصفتي معلم علوم، فقد أخذتني هذه التجربة بكل قوة، وتفاعلت معها كثيراً، لأنها تلامس تخصصي، وتتناول صلب المواضيع التي أدرسها، طارحة المواضيع بمعنى مغاير للتعليم التقليدي، من خلال محاكاة الأفلام العلمية بطريقة حوارية، محفزة العقل في استكشاف المعرفة وإشهارها، للوصول إلى الحقيقة. إن هذه التجربة أظهرت مشاركة فعالة من قبل الطلبة، عاصفة بعقول الطلبة باتجاه الأسئلة المقلقة التي تحتاج إلى جواب علمي في كل مقطع من الفيلم للوصول للمعرفة العلمية.

لقد غاصت هذه التجربة كثيراً في عمل الجهاز العصبي، بالاعتماد على الصوت والصورة، مطلقة العنان للعقول لكي تبحث عن الإجابات لكل الأسئلة الاستفسارية والمواقف الحرجة في الفيلم، من خلال تفسير لغة الجسد.

فأحد المقاطع من الفيلم اقترب من مقولة يتداولها الناس بكثرة عند إصابة أي شخص وعدم شعوره بالألم فنقول: إن «الإصابة سُخنة»، وهذا جواب غير علمي، وعند تفسيري للغة الجسد في هذا المقطع أدركت أن الجسم يفرز مادة مخدرة باستمرار ما دمنا نبحث عن النجاة فلا نحس بالألم.

إن هذا النمط من التعليم باستخدام الأفلام يستحق منا كل الاحترام والتقدير، لأنه ينمي القدرات عند الطلبة على مستوى التوصيل والتواصل، ويساهم في نمو التعليم التربوي على مستوى الوطن، فالأفلام العلمية أحد أهم الوسائط التعليمة في تبسيط مادة العلوم والعلوم الأخرى، مركزة على تنمية الوعي العلمي عند الطلبة، وهي صناعة مهمة في عملية التعليم والتعلم، ولا أبالغ إن قلت إن الدول المتقدمة سبقتنا كثيراً في تفعيل هذا النمط من الوسائط المتعددة داخل الحصة الصفية، بينما في عالمنا العربي ما زلنا لا نتقن تفعيل هذا النمط من الصناعة التربوية على الرغم من أهميتها.

فكل الشكر والتقدير والاحترام للمعلمة على هذا النمط غير التقليدي الذي يساهم بشكل فعال في عملية النمو المهني والتربوي للوصول إلى المعرفة المتكاملة بكل يسر وسهولة.

ومن ثم أطل علينا المعلم داود فرعون في تجربة تحاكي الحداثة «من أحادية المعرفة إلى التعددية والمعايشة». فهذه التجربة تغوص في مصادر المعرفة الحديثة، تحت شعار «مسيرة المعرفة لا نهاية لها وحصادها كثير ومتعدد»، مركزاً في تجربته على المحاكاة التفاعلية بين المعرفة والمعلم والطالب، مشهراً شراكة بين أذرع المثلث الثلاثة من خلال الحوار والنقاش الجاد حول مواضيع مختلفة. فبعد أن كان المعلم دائماً سارداً للنصائح، مزوداً للمعرفة، أصبح هناك تعايش بين المعلم والطالب، مدعوماً بواقع وبيئة غيرنا في هذا العالم، وقد تمثل ذلك جلياً من خلال الوقوف مع كل درس من دروس المنهاج ومحاكاته من قبل الطلبة من جميع جوانبه التعليمة.

فالتجربة تعمل على ترسيخ مبادئ وشعارات عند الطلبة والمعلمين، مركزة على السعي دائماً وراء المعرفة من جميع مصادرها المتاحة، بمساهمة كل طالب بما لديه من معرفة (توصيل وتواصل)، وضرورة التعاطي مع تجارب الآخرين من خلال النقد الهادف والبناء، مع الابتعاد كل البعد عن الغرور، رافعاً شعار «سأبقى متعلماً ولن أكون عالماً»، وهذا يدفعني لأخلع رداء العلماء لكي أكون مثقفاً مجدداً ومبدعاً.

بعد ذلك أطلّت علينا المعلمة ختام أنور، طارحة تجربتها بكل قوة (بناء المعرفة من خلال طبيعة العلوم)، معتمدة على إدخال أسلوب جديد في تدريس ماده العلوم (ماده الوراثة)، بحيث تضع الطالب في مراحل بناء المعرفة العلمية، دون أن تصله جاهزة بالاعتماد على

الممارسات التأملية والتبادلية والتحليلية مع محاكاة الذات والآخرين، معتمدة على السرد التاريخي لما قام به العلماء للوصول إلى بناء المعرفة. ومما يميز تجربتها استخدامها وتفعيلها لجهاز (L. CD) الذي ساهم في إيصال المعرفة، وكذلك قيامها بعمل نموذج يحاكي الوراثة المندلية للوصول إلى قوانين مندل في الوراثة، من خلال عمل بحث استقصائي يعتمد على تجميع للبيانات وتحليلها فكانت النتائج.

وهذه التجربة هي من التجارب الرائدة التي تقوم على إيصال المعرفة والقوانين من خلال البحث والاستقصاء والتجارب، لا من خلال التعليم البنكي التقليدي.

ومن ثم اطل علينا إسلام كبها في تجربته المسعفة (حياة البلبيسي) التي تدغدغ مشاعر كل معلم، بحيث تلامس ما يفكر به كل معلم من ضرورة إحداث تغيير نوعي وكمي في المناهج الفلسطينية، بما يتناسب مع الواقع الفلسطيني قديمه وحديثه. إن هذه التجربة تهدف إلى إعادة ترتيب صورة فلسطين العام 1948 في ذهن الطالب في الصف السابع، من خلال رسم مشهد ثقافي جغرافي للواقع الفلسطيني في تلك الفترة، وكذلك تهدف إلى إعطاء صورة جديدة للمعلم من خلال تجربة حياه البلبيسي المعلمة في دير ياسين.

بعدها أطل علينا زميلان لي في المدرسة التي أديرها، وهما المعلمان محمد شاهين ووائل فقيات، ولا أجافي الحقيقة إن قلت إنهما مثالان للمعلم المتجدد المحاور المبدع المنتمي لمهنته.

لقد كانت لي استشارات كثيرة في تجربتهما (التعبير والتفكير.. مشروع في سياق حياتي)، وقد أعجبتني كثيراً وتفاعلت معها باستمرار كلما عرضت علي، فهي تهدف إلى تنمية مهارات التفكير العلمي في الرياضيات، والتعبير الحر، والفن، والتكنولوجيا، وتعمل على استكشاف مهارة التفكير الإبداعي والناقد للوصول إلى خلق معنى للخيال، وبناء الإدراك لتعميق نمو الذاكرة، وفسح مجال المعرفة والمبادرة، وصولاً إلى معقولية التأمل ورسم معنى للنقد من خلال التطبيق والتحليل والتقييم والحكم.

ومما أثار ارتياحي توظيف القصة في حل المشكلات الرياضية، ومقاربة المسائل على أرض الواقع، وتوظيف النص في إكساب المعلومات الرياضية المرونة في التفكير من خلال النقد، والميل إلى استخدام العصف الذهني في تغيير نمط التفكير لتجاوز العقبات.

وقد تولد عندي انطباع من خلال هذه التجربة، أن التعليم التكاملي قد يكون أحد المداخل الصحيحة في عمليه التعليم والتعلم.

فلقد تم التعرف على الأعداد الصحيحة من خلال ربطها بجغرافيه فلسطين، وتم التعرف على حقائق تاريخية رياضية من خلال سردهما بقصص أدبية. وتم تفعيل طرق مختلفة في حل المشكلات في سياق تاريخي، وتنمية مهارات إجراء العمليات الحسابية من خلال إضفاء الصفة على الأشياء، وربط النتائج بالمفتاح المرفق (القصة).

ولا أبالغ إن قلت إن هذا المشروع يعمل على تزويد طلبتنا بالأدوات التي تنمي قدرتهم النظرية والتطبيقية، لتكون أكثر فعالية، وتساعدهم في بناء مهارة الإنتاج والإبداع وامتلاك القدرة على زرع الخيال وتنمية الحلول، بحيث يمكن الطلبة من إعطاء صورة ذات معنى للعالم من حولهم وبلغتهم، وهذا يجعلني على يقين أن لكل طالب بصمة عقلية لا تحتاج إلا لمعلم متجدد محاور، يعمل على إخراج القدرات العلمية والأدبية من أدمغة طلابه.

وفي نهاية اليوم الأول، أطل علينا د. منير فاشه برزانته وثقته العالية فيما يقوله. لقد كانت تجربته ملامسة للسياق الاجتماعي تحت عنوان (رؤى وحكايا ومؤسسات)، حيث تحدث فيها عن تجربته الشخصية حول العمل في مؤسسات تربوية واجتماعية، رافعاً شعاراً بضرورة التوصيل والتواصل مع الآخرين أثناء زيارته للمؤسسات المختلفة، مقارناً تجربته مع تجارب الآخرين، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد ركز في تجربته على ثلاثة محاور (الواقع، والجذور التي كونته، وعلاقتنا بالواقع والقيم التي توجه سلوكنا وممارساتنا)، داعياً إلى دعم البيئة التربوية بشكل حقيقي، من خلال ربط التربية والتعليم بإدراكنا للحياة والطبيعة المحيطة من حولنا.

لقد أثارت مداخلة فاشه نقاشاً موسعاً، ولاقت تفاعلاً كبيراً من الحضور، وهذا دليل على قيمه هذه التجربة الشخصية لتربوي فلسطيني يعرفه حتى الذي لم تتح له فرصه الالتقاء به.

وفي النهاية أقول، إن الأهداف الحقيقة لهذه المقاربات الفكرية التي عرضت في المؤتمر، تتمثل في تنميه القدرة على التفكير حتى يصل الطالب إلى المعرفة التي تحقق له النجاح والسعادة في حياته، وذلك من خلال حرص الطلبة والمعلمين على طرح التساؤلات، والبحث عن الإجابات، والتعبير بطريقة دقيقة عن المعاني المقصودة، ثم التدرج في الحوار إلى توليد الأفكار والمعاني للوصول إلى الحقيقة، من خلال تنمية قدرات الطلبة على التفكير، وإطلاق طاقته المبدعة، وتوجيه سلوكه نحو تغيير الواقع الحالي إلى واقع تربوي أوسع، فهي إذن عمليه متواصلة في البحث عن المعرفة.

إن طرائق التعليم التي تجنح إلى الحفظ والنقل والثقافة الشفهية، معتمدة على التلقين، مستبعدة الحوار والتساؤل، هي طرائق لا تنمي الفكر ولا تولد المعاني، ولا تساعد على الفهم، ولا تصنع معرفة، وإنها طرائق تعيق حركه التقدم وتشجع الكسل العقلي، وتدفع الناس إلى أخذ ما ينقل إليهم مأخذ التسليم دون نقد أو فهم.

فكل التحية إلى منظمي هذا المؤتمر الذي يغوص في الطرق العلمية الصحيحة، للوصول إلى المعرفة، وكل التحية إلى مركز القطان للبحث والتطير التربوي الذي يعد منارة للعلم والمتعلمين.

عبد الحليم نمر اسليمي
منسق منتدى إذنا